

دراسات الأدب المعاصر، السنة الثامنة، خريف ١٣٩٥، العدد الواحد والثلاثون: صص ٧٥-٨٩

الموتيف الرمزي للقدس في شعر محمود درويش؛ دراسة إحصائية ودلالية

كبرى روشنفكر*

تاريخ الوصول: ٩٥/١/٢٤

حامد پورحشمتي**

تاريخ القبول: ٩٥/٤/١٩

الملخص

لقد اعتبرت المدينة موقعا جغرافيا يخصص الأديب ويكشف عن علاقاته الوطيدة بموضع ترعرع فيه؛ فتتصل اتصالا وثيقا بصوره الشعرية وبوصفها مسرحا حقيقيا يصاغ في مصهرتها جوهر الشعر ودلالاته، بحيث كان موتيفها في شعر محمود درويش نسقا خاصا يعكس نفسية الشاعر واتجاهاته الملحة. من هذه المدن موتيف مدينة القدس التي اتسعت مفاهيمها في ذاكرة درويش وتحوى دلالات ورموز مغرية كإحساءها باسم الأرض الفلسطينية تماما وحظوتها برموز للقداسة، والحضارة العربية، وتاريخ فلسطين العريق. تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على موتيف القدس في شعر محمود درويش معتمدة على المنهج الوصفي - التحليلي الرافد على تحليل النصوص الأدبية وفك الرموز والدلالات فيها.

الكلمات الدلالية: الشعر الفلسطيني المعاصر، الموتيف، الرمز، المكان، المدينة، محمود درويش، القدس.

* عضو هيئة التدريس، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة تربيت مدرس، طهران، إيران (أستاذ مشارك).

kroshanfekr@gmail.com

poorheshmati@gmail.com

** طالب الدكتوراه، فرع اللغة العربية وآدابها، جامعة رازی، کرمانشاه، ایران.

الكاتب المسؤول: حامد پورحشمتي

المقدمة

يسعى مفهوم الصورة المعاصرة إلى توسيع حقولها ويطلب بالتغيير اللغوي المتخذ نسقا محددا يثير في النفس مدركات حسية ويستخدم فيه من آلات التأثير الكائنة في اللغة من الجمل الحقيقية، والمجازات، والتشبيهات، والمفردات ذات الجرس الخاص، وربط الجمل، والفصل بينها، والتضاد، والمرادفة، و... (السيد، ١٩٨٨م: ١٧٧)؛ ويبين الأديب بها تجربته الذاتية بلغة تتكاتف فيه الألفاظ وتصدر عنه جوانب فنية ناجمة عن تركيب الألفاظ، وترتيبها، وتوظيفاتها، وقد تتفاعل بعض الألفاظ مع بعض لتظهر ما فيها من جمال وقيم خاصة لا تكون لوحدها وحدات مستقلة، بل بالتفاعل معا وبقوة المخاطب على تصوّر المفاهيم والصور وراء المفردات التي تمسك بها الأديب للتعبير عن تجربته (شنوان، ١٩٧٧م: ١٥)؛ وتمثل قيمة جمال الصورة في الطريقة التي يفرض بها الأديب على المتلقى ضربا من العناية بمفهوم يعرضه ويجعلنا نتفاعل معه في المعنى ونتأثر به سويا مثل توصله بأسلوب الموتيف.

لقد شغل المكان الفكر البشري منذ القديم وذلك أنه عامل مشترك له مع الحركة والحياة، يقدم إليه حلّا منقذا للمبدع حين يريد الهروب (أمين، ٢٠١٣م: ٢١٤)؛ فيشكل المكان امتداد الزمن في البشر والهوية التي تخلق صوراً للتعريف بالذات والعلاقة بين الفرد والعالم. تحمل كلمة المكان ولاسيما المدينة الكثير من الدلالات التي تسربت ملامحها في العديد من الميادين المعرفية ووجدت صداها في الأدب مثل الشعر الفلسطيني المعاصر الذي كان فيه الحب للأرض سببا على بلورة الفكرة المقاومة؛ فالشعر الفلسطيني هو شعر المكان وذلك أن موضوعه، وخياله، وتأريخه انعقدت جميعها بالأرض التي تحولت إلى هاجسة في المخيلة الشعرية الفلسطينية وبخاصة في المدينة التي تعدّ إطارا مكانيا لما يجيش فيه المجتمع من الحركات والتكوينات المتتالية للقيم وأنماط الحياة (أبوغالي، ١٩٩٥م: ٦٣)؛ فتمثل المدينة للشاعر الفلسطيني عالما خصبا زاخرا بالنماذج البشرية، والحياة، والمفارقات التي تمكّنه من رصد العثور فيها على عوالم لا حدّ لها من التجارب والأحاسيس.

أمّا المدينة في شعر محمود درويش فبوصفها إحدى الظواهر الفنية البارزة في قصائده، تتنوع مظاهرها بالحالة النفسية والشعورية التي أحاطت بالشاعر أثناء تجربته الشعورية

ولحظة الإبداع؛ في الواقع وظيفة المدينة والمهمة الشعرية عند محمود درويش استجابة عاطفية من قبله على تشخيص عالم المحسوسات الذي تتناسق مع عالم الواقع وقد تخالفه، وهو في صور ومفردات تستعين روافدها بفن الرسم والتصوير لكي يحصل من خلالها على الفكرة ووجهة النظر في القارئ؛ إذ إنه يضم أبعاد الروح الإنسانية ويتناسق بالمتكوتات الرمزية والعناصر الإيحائية التي تتعاقد على تشخيص جمالية المدينة في شعره وتوظيفها بأساليب عدة وتشكيلات فذة على تشييد الرؤية الشعرية للواقع أو حسب تخييل الشاعر. إذ هنالك بعض المواضيع، والأفكار، والصور الأثيرية التي تغلبه بعض الأحيان؛ فيكررها للمواكبة لكل الأحداث المتصلة بقضية مدينته وهي القدس بغية التأثير في المخاطب أو إزالة الستار عن حسن باطنى يلزمه دوما من خلال الحياة.

أسئلة البحث

١. ما هو دور موتيف مدينة القدس في شعر محمود درويش بين القصائد إحصائياً ودلالياً؟
- ٢- كيف يتم تقديم مدينة القدس ودورها التوظيفية في شعر محمود درويش؟

خلفية البحث

من الدراسات التي تناولت موضوع استدعاء المكان ولاسيما المدينة في الشعر العربي: رسالة «توظيف المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر» للباحث خالد راضي خليفة مصطفى؛ وأطروحة «دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد ١٩٧٠» لجمال مجناح؛ وأطروحة «جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر» لمحمد صالح الخرفي؛ وكتاب «المدينة في الشعر العربي الحديث» لعبدالله رضوان؛ وكتاب «المدينة في الشعر العربي المعاصر» للباحث مختار على أبي غالي؛ وكتاب «صورة المدينة في الشعر العربي» لزهير عبيدات. ولكن ما كتب عن المكان في شعر محمود درويش على الإطلاق والمدينة خاصة، تشمل هذه الدراسات:

«التقاطب المكاني في قصائد محمود درويش الحديثة»؛ دراسة كتبها رقية رستم پور ملكي سنة ١٣٩١ش وقامت فيها بإلقاء إطلالة عامة على صورة المكان في شعر درويش

وبيان دلالاته ضمن مفهوم التقاطب على أساس أعماله الشعريّة الحديثة؛ لذلك أشارت الباحثة في بحثها على مضامين درويش الشعريّة التي أصبحت محفوفة بالمفردات الدالّة على المكان، وهذا المكان الذي يهتمّ الباحثة ليس هو المكان الحقيقيّ بأبعاده المحدّدة ومقاييسه الموضوعيّة المتعارف عليها، بل مكان مصوّر يركّز فيه على التقاطبات التي قد وظّفها الشاعر في شعره كالوطن، والمنفى، و... .

«دلالة المكان في شعر محمود درويش»؛ رسالة ناقشتها فاطمة شيرزاد سنة ١٣٩٢ش في جامعة الزهراء(س)، وقسمت محاورها إلى ثلاثة فصول؛ أولها نظرة عامّة إلى المكان، والثاني يخصّ سيرة محمود درويش وأدبه المقاوميّ، وثالثها يتناول صميم البحث وهو دور المكان ودلالاته المختلفة في أدب الشاعر من حيث أن يكون رمزياً أو واقعياً كما تدرس الباحثة المكان ضمن مفهوم التقاطب(ثنائيات) كأداة ضروريّة لمعرفة صورته في شعر محمود درويش.

«المكان وتحولات الهوية عند محمود درويش»؛ رسالة كتبتها ليانة عبدالرحيم كمال عبد ربه سنة ٢٠١٢ في جامعة بيرزيت من فلسطين، وفرّعتها إلى ثلاثة فصول؛ الفصل الأول فيها يزاوّل العلاقة بين المكان والهوية عند الفلسطينيين عبر نقاط متعدّدة تطرح سؤال الهوية وسؤال المكان، وثانيها يركّز على تحولات الهوية بالتوازي مع المكان عند الشاعر داخل الوطن والفصل الثالث أو هو الأخير تدرس فيه الباحثة تحولات الهوية عند خروج الشاعر من الموطن(في المنفى) وبعد عودته إلى أرض الوطن، في الواقع يقصد الشاعر في هذه الدراسة أن يظهر أنّ تأثير المكان أي الموطن الرئيس بحضور الشاعر فيه أو بنفيه منه، هو في المفارقات التي يقبلها في هويّته وشخصيّته من خلال الزمن.

«القدس بين نقوش الهوية واشتعال المقاومة في شعر محمود درويش» بحث كتبه ابراهيم موسى سنة ٢٠١١م وقام فيه بتعريف القدس وهويتها المقاوميّة في شعر محمود درويش، بحيث كان الباحث في دراسته هذه محصوراً في البعد المقاوميّ للمدينة وترك الصورة المكرّرة التي تحملها القدس وتجعلها خاصّة بين سائر المدن في قصائد الشاعر. فضلاً عن ذلك اعتمد الباحث في البحث معظم اعتماد على تقديرية لفظة القدس ولم يركّز على حضورها المثير الذي تناولناه في بحثنا موتيفياً مع إحصائيّة شاملة تخصّها في جميع القصائد للشاعر الكبير محمود درويش.

تحسباً لهذه الدراسات الأدبية التي جرت بشأن شعر المقاومة لم يعثر على دراسة تكون قد ركزت فيه على الموتيف الرمزي لمدينة القدس في شعر محمود درويش، ولكن ما يزيد من الجدة في دراستنا هو القصد بخطوة واسعة نحو العثور على المدينة، على إعداد إحصائية من دورها المكرر في كل القصائد مع تحليلها الأدبي والدلالي.

الموتيف

استقى الموتيف من اللغة الفرنسية (Movere) وهو في الإنكليزية على هيئة (Motif) يشبه في معظم الأحيان للفظ (Theme) لإلحاحه على العناصر المكررة وظهورها المتناوب في النص (Fowler & Childs, ٢٠٠٦م: ٢٣٩). كان من الآن فصاعداً دخل الموتيف ووظائفها في اللغات العالمية الأخرى. لقد ظهر الموتيف في مجال الأدب كأبسط عنصر بنائي للنص (شفيعي كدكني، ١٣٩١ش: ١٨٨) بحيث نشعر من خلاله بمواجهتنا لمشهد أدبي رائع تجاوب مع المشاهد الأخرى، وانعقد بفكرة نشيطة في وظيفة النص الأدبي بعدما كنا ن فكر في أن العمل الأدبي مجموعة من المشاهد المنفصلة بعضها عن بعض، ولكن تكشف عبر دراسة الموتيف عن حقيقة واحدة داخل المظاهر المختلفة. ونظراً إلى الأعمال الأدبية المعاصرة؛ يعثر على قدر واسع من العلامات الموتيفية المتباينة على الإطلاق عن الكاريكاتير والتخطيطات التي يعدّها الفنان لإكمال لوحة أو منحوتة؛ فيرتكز على حركة ترافقها العفوية، والهدف منه بلورة لقطة جمالية حاصلة من فحوى النص، ليوسّع خيال المتلقى، ويشحذ ذاكرته، ويحفّزه على الرغبة في قراءة النص والتعمق فيه؛ فيستقى الكثير من الموتيفات من المضامين الفكرية والشعورية للأديب حيث لا يمكن دونها معرفة الزوايا المختلفة في مفاهيم النص (صادق زاده، ١٣٨٩ش: ٢٨٠).

تكرّر لفظة الموتيف في الوظيفة الأدبية بشكل أيدت الدراسات المتقدمة في الأساطير والحكايات عند الشعوب المختلفة أن المماثلات بين ما يعرض من الإنتاجات الأدبية الشعبية، لا تقف عند الملامح المحدودة المشتركة، بل تتعدّها إلى التشابه في المواقف، والشخصيات، والنطق العامّة. حتّى يظلّ في القصيدة دلالة نفسية تصدر من انغماس الشاعر واستغراقه في بعد معيّن من الفكرة، ونرى في هذه الحالة أنفسنا نواكب الشاعر في

شئ يقع في حياته وقد يقع في حياتنا دون أن نعيشه؛ فنحسّ في كل هنيئة بأنّ شيئاً ليقدم نفسه إلينا ويؤكد وجوده لنا (إسماعيل، ١٩٦٦م: ١٦٦).

الرمز

أخذ الرمز من اللغة اليونانية Symbolion تعنى الجزر والتقدير، وكان للغرب في النسبة إليه فضل متزائد ولو مستمدّ في جذوره من الديانة البوذية (خلف، ٢٠١١م: ١١١)؛ وهو جزء لا يتجزأ عن الصورة بل يكون رؤية ملتحمة تعبّر عن كلّ تعبير تأثريّ غير حرفيّ يعمّق أبعاد الرمز، كما أنّه مجال لاكتشاف الغوامض وسبيل إلى نقل الرمز إلى نموذج أو مثال جماليّ يعبر عن حالة جمعيّة في زمن من الأزمنة. وذلك في الشعر العربيّ انعكاس فكرة غامضة وأحد مهمات للشاعر ولا تنحصر قوّته على اكتشاف الانعكاس والحقيقة، وإنّما هو مهمة كبيرة صعبة في التشكيل الجماليّ للصورة الفنيّة والإزالة عن مجمل الأحاسيس التي أدّخت وراءها (الزائد، ٢٠٠٢م: ١٠٤). الرمز في الشعر الفلسطينيّ يمكن الكشف عن وظيفة يؤديها في السياق الأدبيّ بالسؤال عن الحاجة إلى استعماله بما يحمله من قدرة على الإيحاء، والفعل المؤثّر في إغناء النص. وهو سواء أكان أسطوريا أم دينيا، أم مستقى من الموروث الأدبيّ أو التاريخي، يثرى الشعر الفلسطينيّ فكرياً وجمالياً، ويضفي على قصائده عمقاً وكثافة دلاليّة.

إذن بعد قراءة تأملية قمنا بها في نماذج مختلفة من قصائد محمود درويش وصلنا إلى الرموز التي تحتلّ المكانة الوظيفيّة النشيطة وبعدها الجماليّ الرائع حينما تحتضن دلاليّاً تجربة الشاعر أو رؤياه أو تطلّعاته، وترد تركيبياً في سياقات مختلفة كدخولها في ألوان المدينة. وغالباً ما يكثر فيه الإرتكاز على التكرار، والتوكيد، والشحنة العاطفيّة، والصورة الشعريّة المؤثّرة التي كلّها من عوامل تمكّن الرمز من ترسيخ الفكرة المحوريّة في القصيدة.

المدينة في شعر محمود درويش

إنّ المدينة تعبّر عن وجهة النظر النقديّة الخالصة، ولها خطاب شعريّ ولغة مجازيّة خاصة تشبه قصيدة يعيشها الأديب معايشة يومية (الشاذلي، ٢٠٠٦م: ٢٩١)؛ وهي تميّز

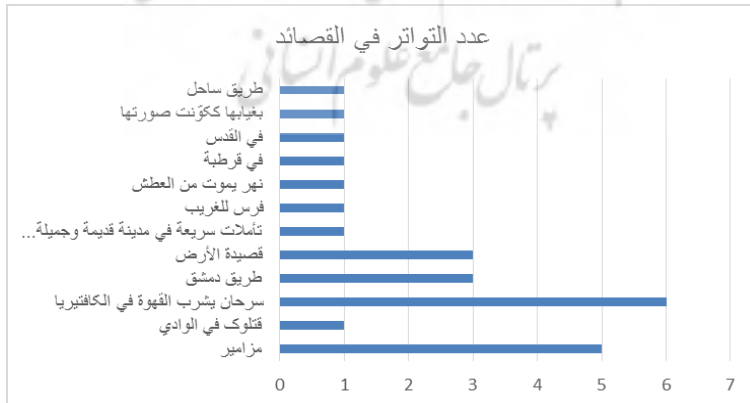
بمناظرها الخلابة في رسم لوحات شعرية مفعمة بالحيوية ومدققة بالحياة وتشكل ساحة فسيحة للشعراء الفلسطينيين ينهلون من ينابيعها ويتجولون بين أحضانها، والحق أن علاقة الإنسان الفلسطيني بالمدينة علاقة تلاحمية تلازمية؛ فهي تجسد حلقة وصل الإنسان الفلسطيني برحم الأرض ويرتبط بهناء الصغر وذكريات الشباب إلى الشيخوخة حيث يكثر الشعور بها تجذراً وعمقاً حين تتعرض أمها (الوطن) للضياع، والإحتلال، والخطر. تمسكت المدينة في الشعر الفلسطيني المعاصر بالحديث عما يعاني فيها الشاعر من ظلم، واستعمار، وضياع يرتبط ذكرها بالدعوة إلى القيام لتخليصها من القيود وبغض فيها الطرف عن الانتماء في المواقف الشعرية لمدينة خاصة ولا تحده الحدود الجغرافية المحددة؛ فكانت أحزان كل المدن أحزانه سواء كانت المدينة فلسطينية أو لبنانية، ولكن المهم في جميعها هو البعد المقاوم الذي يجعلها في موقف مشترك. من ثمّ تحمل المدينة في الشعر الفلسطيني رموزاً فنية ودلالات حثيثة تسهم في تشكيل النص الجمالي؛ فهي رمز للعذاب، ورمز للقبح، والقسوة، ورمز للمرأة أو رمز للوطن بأجمعه.

أما المدينة في شعر محمود درويش فيتجلى حضورها المكرر في قصائده التي لها أشد اقتراباً من نبض الحياة اليومية فعلا وفاعلية، حيث لا يأتي الشاعر في شأن مدنه بالصورة الواقعة في ساحة الخيال إلا على قدر ما يسرد عن واقع ملموس يعيش كل جزئياته؛ فيرسم المدن ولاسيما منها القدس مركزاً على مكانتها اللفظية واستتبابها في المقطوعات الشعرية لتحرز من خلالها شبكة من العلاقات والرؤى في تشكيل أبعاد مكانية أحاطت به.

موتيف القدس

تعدّ القدس من أقدم المدن التي عرفها التاريخ، وهي قلب العرب النابض ومهوى قلوب المسلمين والمسيحيين على حد سواء (الموسى، ٢٠٠٩م: ٤٦٨)، وهي مدينة مقدّسة عند صحبة الديانات السماوية من جهة، وبوابة واسعة للقارات الثلاث من جهة أخرى؛ فاسمها يتخذ من "القدسية"، وتأريخها يعود إلى زهاء ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، فيقدّسها المسلمون لالتصاقها بمشاعرهم ومسجدها الشهير باسم "المسجد الأقصى" الذي عظّمه الله تعالى بذكره في القرآن الكريم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء / ١).

لقد شهدت القدس على مدى الأزمنة حروباً شديدة وأبشع جرائم لم يجد التأريخ مثيلاً لها وإلى الآن لم يقدر أبنائها على تخليصها من دنس الغزاة والطامعين فيها، وفي هذا الخضم لا يرى الشاعر الفلسطيني غير قلمه آلة مناسبة للحفاظ على ترابه المقدس ولاسيما أثناء الإستيلاء عليها في الخامس من يونيو ١٩٦٧م (ضميري، ١٥ ٢٠١٤م)؛ فيكثر الحديث عنه ولا يألو جهداً ليغرس حبّ المدينة في قلوب أبنائه المقاتلين ويبقيظ العرب من سباته العميق. ويحظى حضور القدس في شعر محمود درويش بعلامة واضحة أبعاد لمنزلة سامية تحتلّها في أشعاره؛ فهي لم تكن مجردة تسمية هامشيّة في نصّه بل تملك صلة روحية معقودة بروح الشاعر وأحاسيسه، وربّما هي قلب النص ومحوره، وهذه الصلة تأخذ في شعره بعداً وطنياً لا تتجسّد ملامحها إلّا في العلاقة بينها وبين الشاعر؛ فتجتاز القدس في سياق درويش الشعري دوائرها الجغرافية المجردة إلى القضية الفلسطينية المشدودة بعلاقته مع الأرض والدفاع عن كرامتها وعرضها. استدعاء مدينة القدس ولو لم يكثر في شعر درويش بحسب الكميّة، لعنايته بقضايا أكبر من ضياع المدينة والريف وهي شؤون الفلسطينيين الإجتماعية وإقامة الصراع مع الكيان الصهيوني في استعادة الحقّ المهضوم؛ مع ذلك عوّضت الجودة في استعمالها عن نقص الكميّة، فباتت القدس في شعره اسماً للوطن وله ربح وقداسة في خلد الشاعر أينما عاش في فلسطين أو خارجها، في مشرق الأرض أو مغربها؛ فيلتفت درويش إلى مدينة القدس بدلالة عميقة ذات أبعاد خاصّة توحى بأهميّة مكانها وما تحوزه من قدسيّة، وحضارة، وتاريخ عريق. لذلك قبل الولوج في الجانب الدلالي والصوري من استدعاء المدينة من المفروض أن يوثق بدورها المكرّر وحضورها البالغ في قصائد الشاعر من بدءها إلى نهايتها:



والحق أنّ درويش لينصّ على صلته المتماسكة بينه وبين مدينة القدس يأتي بلفظتها مرارا في قصائده، وبخاصّة في قصيدته «سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا» التي أشغلت المرتبة الأولى بين نظائرها في عدد التواتر، والأخرى قصيدة «تحت الشبايبك العميقة» في ديوان «آخر الليل» وهي قصيدة أهداها الشاعر إلى القدس لوحدها، وقصيدة «في القدس» في ديوان «لا تعتذر عمّا فعلت». ولعلّ اختيار القدس وإلحاق سائر المدن بها يعود إلى زيارة الشاعر لها قبل لقاءه لنظائرها، على الرغم من أنّه لا يرى في هذه المدينة ميزة فريدة تكون قد شغرت منها سائر المدن، لكنّ أعماله التالية تتسم بحضورها تقديريًا مسترعيا للإهتمام بحذف لفظتها في الأشعار.

إنّ قصيدة «المزامير» كانت قصيدة يجلب درويش في نهايتها لفظة القدس ثلاث مرّات والأخرى هي قصيدة «تحت الشبايبك العتيقة» التي كانت من جملة القصائد التي اعتنى فيها الشاعر بقضيّة القدس بين القصائد الأخرى، ونرى أنّ الشاعر يحدّد اسم مدن عديدة تضمن عكا، وحيفا، ونابلس، ولكن بما أنّه حينما نظم هذه القصيدة نشبت حرب حزيران التي زار في غمرتها القدس فيمكن أن يخمّن بكثرة الإطمئنان إلى أنّ المدينة التي ينطق بها الشاعر فيها هي القدس (الأسطة، ٢٠٠٧م: موقع ديوان العرب). يبدأ حنين الشاعر للقدس في هذه القصيدة في السطر الثاني بالإحالة إليها "مدينة كلّ الجروح"؛ فهي مدينة كلّ الجروح الصغيرة التي حنين الشاعر إليها لا ينفعها ولا ييسر له اللقاء المبكّر بل يزيد من إغترابه عليها؛ فلم يكتسب درويش من لقاءها غير الإسارة والمنفى (درويش، ٢٠٠٥م، ج ١: ١٨٠). تظهر القدس حبيبة درويش، وهي صليبية، وبرج حمام، ومدينة تحظى بجميع الميزات التي يحبّ الإنسان الفلسطيني أن تكون فيها، علاوة على أنّها ذات مذاق متميّز كحلاوة الزبيب وطعم الدم؛ فيؤنسها الشاعر بأحداثها الحسنة والسيئة كما يقول لها «كوني صليبي»، و«ذوّبتني يداك»، و«كالشمس ذوّبي»، و«لا ترحمني» (درويش، ٢٠٠٥م، ج ١: ١٨١)، أو يشخصها باعتباره لها جيدا ووجهها ناعما بالعيون السود التي يقرأ بها ميلاد النهار وأسرار العواطف (درويش، ٢٠٠٥م، ج ١: ١٨٣ و ١٨٢)، فضلا عن دلالتها الأسطورية؛ لأنّها قد تصبح للشاعر سيفًا مذهبا أيضا (م.ن)، أو تتغلغل في أوصاف الشاعر الخياليّة كما يصوّرها في قصيدته "سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا"، ناقة يركبها الحكّام العرب ليروحوا ويلبّوا بها سلطتهم الجائعة:

وَمَا الْقُدْسُ وَالْمُدُنُ الضَّائِعَةُ
سِوَى نَاقَةٍ تَمْتَطِيهَا الْبِدَاوَةُ
إِلَى السُّلْطَةِ الْجَائِعَةِ /
وَمَا الْقُدْسُ وَالْمُدُنُ الضَّائِعَةُ
سِوَى مَنبَرٍ لِلخِطَابَةِ
وَمُسْتَوْدَعٍ لِلكَأَبَةِ
وَمَا الْقُدْسُ إِلَّا زُجَاجَةٌ خَمْرٍ وَصُنْدُوقٌ تَبِغٍ ...
وَلَكِنَّهَا وَطَنِي

(درويش، ٢٠٠٥م، ج ٢: ١٠٥ و ١٠٤)

ما من الواضح في بداية المقطع أن درويش لا يفرق بين مدينة القدس وسائر المدن الفلسطينية ودون أن يفصل بينهما يجعل كليهما ضائعتين ومطيعتين لأوامر الحكام؛ وأما تشبيه القدس ونظائرها بالناقاة فلا يدلّ إلاّ على رسم صورة مستسلمة من هذه المدينة؛ فلم يشخصها الشاعر بمن يعصى ويقاوم أوامر الظالمين بل شبّها بحيوان أليف يتبع ما يؤمر عليه بالإطاعة، في المواصلة يشير بـ "وما القدس والمدن الضائعة/ سوى منبر للخطابة" إلى مناخ ديني يحكم المدينة، إلاّ أنّها لا تنفع شعبها ولا تتغير وجهة نظرهم إلى قبول الإضطهاد؛ فتحوّلت بيد الاحتلال إلى زجاجة زاخرة بالخمير والندس، وانتشرت فيها ملامح اليأس والكآبة. ضياع القدس بزعم الشاعر يدلّها إلى شكل مصغّر يحتوى على أشياء صغيرة غير جديرة كـ "زجاجة خمير" و "صندوق تبغ"، ولكن بالرغم من هذه الأمور، لا يتركها الشاعر؛ فهي من أرض الشاعر الذي يلتزم بها أشدّ التزام ولا يمكنه بأيّة حال أن يتخلّى عنها، سواء أكانت محتلة أو غير محتلة لأنّها قدس الحبيبة، في الواقع كلّما زاد الإحتلال من تدينسها فيزيد الإنسان الفلسطيني من عشقه لها وتطهيرها.

كانت القدس مدينة مفعمة بالأحداث المؤلمة والمعارك، والحق أنّ المدينة والمعركة في الشعر العربي المعاصر ولاسيّما ما نشبت مع العدو الأجنبي تنعمان بالعلاقة المتناسكة (أبوغالي، ١٩٩٥م: ٢٠١)، ولا تنتج هذه المعركة إلاّ عن جرح فقدان الهوية تحت احتلال الكيان الصهيونيّ الدائب على تمزيقها، والعصف بملامحها، وتغيير أسماءها العربية. يحاول محمود درويش أيضا استعادة هويتها القوميّة المضاعة؛ وذلك أنّ الهوية

نظام متكامل من المعطيات المادية، والنفسيّة، والمعنويّة، والاجتماعيّة، وتنطوى على نسق من معطيات التكامل المعرفي نتيجة لوعي الذات، في الواقع هي إحساس فرد أو جماعة بالذات (مهدي العبيدي، ٢٠٠٩م: ٤٧٨)؛ فالهوية في فكرة الشاعر أيضا تشوب مكونات ذات علاقة وترابط جدليّ في ما بينه وبين المدينة وتظهر في حيّز ظروف عسيرة والبواعث المدمّرة التي أحاطت بمدينة القدس، ومن أبرزها جرثوم الإحتلال الذي يهدف بكافّة أشكاله إلى المساس بهويّتها العريقة:

هنا القدسُ من حليبِ البلابلِ

كيفَ أعانقُ ظلّي..

وأبقيّ؟

خلّقت هنا وتنامُ هناكَ

مدينةٌ لا تنامُ وأسماءُها لا تدومُ، يَبُوتُ

تغيّرَ سكّانها

(درويّش، ٢٠٠٥م، ج ٢: ١٠٤ و ١٠٣)

ما يظهر في بداية السطور الشعريّة هو أنّ الشاعر يربط بين المدينة والمرأة؛ فالقدس امرأة من حليب البلابل وهي صورة دخلت عالم الأسطورة؛ فهي مدينة لا تنام ومدينة تتغيّر أسماءها، وهي تشير إلى أسماء القدس الكثيرة منها يبوس، وأورشليم، ايليا القدس ... وتغيّر سكانها منهم اليبوسيون، والكنعانيون، والرومان، والعرب، واليهود. وأمّا قوله في "هنا القدس" يشير إلى وجودها التاريخي والحضاريّ واتّصاله بهويّتها الذاتيّة والجماعيّة، وهو يقوى ويستحكم باستحضاره جملة "خلّقت هنا"، لكنّه في الشقّ الثاني تضيعها الذات الشاعرة حيث لم تعد تمتلكها في الحال امتلاكاً فعلياً وذلك ينفي سيادة الإنسان الفلسطينيّ على المدينة؛ لأنّه ينام "هناك"، مكان لا يمكن أن ينوب عن "هنا" هو القدس؛ فتعبّر الصورة الشعريّة عن حالة التشرّد والنفي في الشاعر، هي التي أثّرت على نفسيّته وتعبيره الشعوريّ للغاية.

إنّ الميسم الآخر الذي ينطق به الشاعر لمدينة القدس يختلط بالتاريخ الإسلاميّ العريق بمكانة مقدّسة ما برحت تفيض داخل أسوارها القديمة؛ فجنسيّة القدس تاريخ ينبع من تراث الأنبياء الذين قدّسوها بقدمهم داعين إلى الشعارين القيمين، هما المحبّة

والسلام المقدّسان والضاربان في عمق تأريخها العربيّ والإسلاميّ؛ فالقدس الإسلاميّة ذات بلورة منيرة في حضرة المعراج النبويّ كما يقول الشاعر:

فِي الْقُدْسِ أَعْنَى دَاخِلِ السُّورِ الْقَدِيمِ
أَسِيرٌ مِنْ زَمَنِ إِلَى زَمَنِ بِلا ذِكْرِي
تُصَوِّبُنِي
فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ هُنَاكَ يَفْتَتِمُونَ
تَأْرِيخَ الْمُقَدَّسِ... يَصْعَدُونَ إِلَى السَّمَاءِ
وَيَرْجِعُونَ أَقْلًا إِحْبَاطًا وَحُزْنًا فَالْمَحَبَّةُ
وَالسَّلَامُ مُقَدَّسَانِ وَقَادِمَانِ إِلَى الْمَدِينَةِ
كَنتُ أَمْشِي فَوْقَ مُنْحَدَرٍ وَأَهْجَسُ: كَيْفَ
يَخْتَلِفُ الرُّوَاةُ عَلَيَّ كَلَامَ الضُّوءِ حَجْرٍ؟

(درويش، لاتا: ٤٧١)

يحاول الشاعر في هذه المقطوعة أن يشفّ بمدينة القدس عن اصطبائها بالصبغة التاريخية والدينيّة واستحضار الهوية الوطنيّة لها؛ فتعدّ القدس مكانا يسير الشاعر بها في كل لحظات من الحزن أو من السرور لكنّه حينما يقدّس ترايبها بقدم الأنبياء وصعودهم إلى سماءها، يزيل الحزن والإحباط عنها وينسب إليها أحسن الخيرات بالسلام والمحبة اللذين يعتبرهما الشاعر من السمات المقدّسة التي تنضمّ إلى هذه المدينة. وأمّا أسلوب الإستفهام في نهاية المقطوعة يدلّ على عجب الشاعر من اختلاف الرواة في تعيين هويّة القدس الشهيرة، خلال رؤية حجارة القدس المضيئة التي تقدر لوحدها على الوعي بأحداث التأريخ العربيّ الإسلاميّ وحضورها الدينيّ والحضاريّ في طبيّاتها.

نتيجة البحث

إنّ التفتيش عن الصورة الشعريّة حول المدن في شعر محمود درويش ينتج الكشف عن تجربته المقاوميّة في إطار فكرة التكرار والموتيف، فيستعين الشاعر ألفاظ المدن متتاليا من خلال الخيال والرمز ليعمّق بهما الدلالة، والفكرة، والصورة في ذهن المتلقّي. تكررت لفظة القدس في قصائد محمود درويش ٢٥ مرّة وهذه القلّة في الإتيان بلفظتها

لا تنفى حضورها المثير؛ لأنّ التفات الشاعر إليها كان تقديريًا أكثر منها لفظيًا. هذا وقد كانت قصيدة "سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا" من أكثر القصائد تكراريا في حيازة لفظة القدس إلى جانب ما يحمل القدس في عنوانه كقصيدة "في القدس" التي يقدمها الشاعر إلى هذه المدينة.

تعدّ مدينة القدس في شعر محمود درويش مدينة واسعة تعادل رمزيّتها الوطن بأجمعه وتبقى في خلد الشاعر بأحداثها الحسنة والسيئة مهما كانت، حرّة أو محتلة وقريبة أو بعيدة؛ فيتوجّه درويش إلى مدينة القدس بدلالة ذات أبعاد خاصّة توحى بأهميّة مكانها مما تحوزه من قدسيّة، وحضارة، وتاريخ عريق. تظهر مدينة القدس حبيبة درويش ومدينة تتسع دلالاتها بدخوله في صورته التشبيهيّة التي تدلّ على خيال الشاعر المصقول، مع ذلك لا يفرّق درويش بين هذه المدينة وسائر المدن الفلسطينية بل يعتبرها ذات هويّة ضائعة بأوامر الحكّام وسياساتهم؛ فيحاول الشاعر أن يعيد هويّة القدس القوميّة الضائعة مشعرا بجرثوم الاحتلال الذي بقصد بكافة أشكاله المساس بهويّتها العريقة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أبوغالي، مختار علي. ١٩٩٥م، **المدينة في الشعر العربي المعاصر**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

إسماعيل، عز الدين. ١٩٦٦م، **الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية**، ط ٣، بيروت: دار الفكر العربي.

درويش، محمود. ٢٠٠٥م، **محمود درويش الديوان الأعمال الأولى او ٢ و ٣**، ط ١، بيروت: رياض الرئيس للكتب والنشر.

درويش، محمود. لا تا، **الأعمال الكاملة**، إعداد علي موة، منتدى مكتبة الإسكندرية.

الزائد، عسرى. ٢٠٠٢م، **عن بناء القصيدة العربية الحديثة**، ط ٤، الرياض: مكتبة ابن سينا.

السيد، شفيح. ١٩٨٨م، **التعبير البياني؛ رؤية بلاغية نقدية**، ط ٣، بيروت: دار الفكر العربي.

الشاذلي، عبدالسلام محمد. ٢٠٠٦م، **تجربة المدينة في الشعر العربي المعاصر (صنعاء نموذجاً)**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

طه، المتوكل. ٢٠٠٤م، **حدائق إبراهيم؛ أوراق إبراهيم طوقان ورسائله ودراسات في شعره**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

عبّاس، إحسان. ١٩٧٨م، **اتجاهات الشعر العربي المعاصر**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

شفيعي كدكني، محمدرضا. ١٣٩١ش، **رستاخيز كلمات؛ درس گفتارهاي دربارہ نظريه ادبي صور تگرايان ادبي**، تهران: سخن.

المقالات والرسالات

أمين، هيرش محمد. ٢٠١٣، «جماليات المكان في شعر لطيف هلمت (شيخوخة كليوباترا وأطفال المطر أنموذجاً)»، مجلة زاكومي سليمان، جامعة السليمانية، ع ٣٩، صص ٢٤٦-٢١٣.

خلف، جلال عبدالله. ٢٠١١م، «الرمز في الشعر العربي»، مجلة جامعة ديالى، ع ٥٢، صص ١٣٧-١١٠. شنوان، يونس. ١٩٧٧م، «الصورة وموضوعاتها في شعر ابن شهيد الأندلسي»، مجلة دراسات أندلسية، العدد ١٨.

صادق زاده، محمود. ١٣٨٩ش، «بررسی مختصات سبکی وموتیف پردازی در غزلیات کلیم کاشانی»، پژوهشنامه فرهنگ وادب، دوره ٦، شماره ١٠، صص ٢٩٧-٢٧٩.

- ضميرى، هديل. ٢٠١٥م، «حائط البراق؛ إسلامى الملكىة فلسطينىة الهويةة»، صحىفة العاصمة، الأربعاء ٢٥ فبرابر، العدد التاسع.
- عبدربته، لىانة عبد الرحىم كمال. ٢٠١٢م، «المكان وتحوّلات الهويةة عند محمود دروىش»، رسالة ماجستير، جامعة بىرزىة، فلسطين.
- الموسى، خلىل. ٢٠٠٩م، «القدس فى مدونة الشعر العربى الحديث»، جامعة دمشق، قسم اللغة العربىة، كلية الآداب والعلوم الإنسانىة، صص ٤٨٩-٤٦٧.
- مهدى العبىدى، حبىب صالح. ٢٠٠٩م، «دراسة فى مفهوم الهويةة»، جامعة الموصل، دراسات إقلىمىة، ع ١٣، صص ٤٩٣-٤٧٥.

